الشعر العربي في خمسين سنة

اذا اعتبرتَ الشعر العربي قبل خمسين سنة خَلَتْ (اي قبل انشاء المقتطف) وتأملتَ حليتهُ ومعرضهُ ونظرت في مناهجهِ وطريقتهِ وتصفحتَ معانيهُ واغراضهُ — لم ترَ منهُ الا شيئاً مما تراهُ من بقايا الورق الاخضر في شجرة ثقل عليها الظل فهو جامد مستوخم، وحرم في ظلها شعاع الشمس فهو بارد يرتعد، فالحياة فيها ضعيفة متهالكة لا هي تموت كالموت ولا هي تحيا كالحياة، وما ثمَّ الا ماء ناشف ورونق عليل ومنظر من الشجرة الواهنة كأنهُ جسم الربيع المعتل بدت عروقهُ وعظامهُ

كان ذلك الشعر فاسد السبك متخلف المنزلة قليل الطلاوة بين مديح قد أُعيد كل معنى من معانيهِ في تاريخ هذه اللغة بما لا يحصيهِ الا الملائكة الموكلون باحصاء الكذب، وبين هجاء ساقط هو بعض المواد التي تشتعل بها نار الله يوم تطلَّع على الافئدة، وبين غزل مسروق من القلوب التي كانت تحب وتعشق، وبين وصف لا عيب لموصوفهِ سواهُ، وشكوى من الدهر يشكو الدهرُ منها، وتحزُّن ويأس وندب تجعل ديوان الشاعر كما سمَّى احد ظرفاء القرن الثاني عشر للهجرة ديوانَ احد اصحابه «باللطمة ....»، ورثاء كقراءة القراء في جنازات الموتى لا فيها عظة السكوت ولا فائدة النطق. وتمر كلُّ ذلك انواع من الصناعة بيّنة التصنع ضعيفة التقليد لا ترى المتأخرَ فيها مع المتقدم الا قريباً مما يكون عمل اللص في اخذ المال، من عمل صاحب المال في جمعهِ. والعجيب انك اذا اعترضت الشعر من القرن العاشر للهجرة الى القرن الثالث عشر (السادس عشر للميلاد الى التاسع عشر) رأيتهُ نازلاً من عصر الى عصر بتدريج من الضعيف الى الاضعف حتى كأنما يهبط بقوة طبيعية كقوة الجذب كلما هبطت شيئاً اسرعت شيئاً الى ان تلصق بالارض. وبعضهم يسمي هذه العصور بالعصور المظلمة ولم يتنبه احد الى ان في الادب ناموساً كناموس رد الفعل يخرج أضعف الضعف من اقوى القوة وان انحطاط الشعر في تلك العصور — على انهُ لم يكن الا صناعة بديعية انما سببهُ القوة الصناعية العجيبة التي كانت للشعر منذ القرن السادس الى العاشر بعد ان نشأ القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) وكان رجلاً من الرجال الذين يخلقون حدوداً للحوادث تبدأ منها ازمنة وتنتهي عندها ازمنة. فتن الناس بأدبهِ وصناعتهِ وصرف الشعر والكتابة الى أساليب

النكتة البديعية. وظهرت من بعدو عصابةٌ التي يسميها العصابة الفاضلية وما منهم الأ امام في الادب وعلومه تمكن في مصر القاضي بن سناء الملك وسراج الدين الوراق وابو الحسين الجزار واضرابهم ، وكان في الشام عبد العزيز الانصاري والامير مجير الدين بن تميم و بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي وامثالهم. فهذه العصابة هي التي تقابل في تاريخ الادب العربي عصابة البديع الاولى كمسلم وابي تمام وابن المعتز وغيرهم . وكلتا الفئتين استبدت بالشعر وصرّفتهُ زمناً واحدثت فيهِ انقلاباً تاريخياً متميزاً . بيد ان العصابة الفاضلية بلغت من الصنعة مبلغاً لا مطمع في مثلهِ لاحد من بعدها حتى كأنهم لم يدعوا كلمة في اللغة يجري فيها نوع من انواع البديع الأ جاؤا بها وصنعوا فيها صنعة ، وكان بعضهم يأخذ من بعض ويزيد عليهِ الى آخر المائة الثامنة فلم يتركوا باباً لمن يأتي بعدهم الأ باب السرقة باساليبها المعروفة عند علماء الادب . ولهذا لا تكاد تجد شعراً عربيًّا بعد القرن التاسع الى اول النهضة الحديثة الأ رأيتهُ صوراً ممسوخة مما قبلهُ وكل شعراء هذه القرون ليسوا من وراءهم الأ كالظل من الانسان لا وجود لهُ من نفسهِ وهو ممسوخ ابداً الأ في الندرة حين يسطع في مرآة صافية . ومتى كان الشعراء لا ينشأون الأ على فنون البلاغة وصناعاتها وكانت هذه كلها قد فرغ منها المتقدمون فما ثمَّ جديد في الادب والفن الأ ولادة الشعراء وموتهم والا تغير تواريخ السنين . . . . وهذا اذا لم نعدَّ من الادب تلك الصناعات المستحدثة التي ابتدعها المتأخرون مما سنشير الى بعضهِ كالتاريخ الشعري وغيرهِ

***

ان الفكر الانساني لا يسيّر التاريخ ولا يقدّر قدَراً فيهِ ولا ينقلهُ من رسم الى رسم لانهُ هو نفسهُ كما خلق مصلحاً خلق مفسداً وكما يستطيع ان يوجد يستطيع ان يفني وكما تُطرد بهِ سبيل تلتوي بهِ سبيل اخرى . وما اشبه هذا الفكر في روحتهِ بقطار الحديد يطير كالعاصفة و يحمل كالجبل ويُدهش كالمعجزة وهو مع كل ذلك لا شيء لولا القضيبان الممتدان في سبيلهِ يحرفانهِ كيف انحرفا و يسيران بهِ اين ارتميا و يقفان بهِ حيث انتهيا . ثم هو بجملتهِ ينقلب لأوهى اختلال يقع فيهما . لا جرم كانت العصور مرسومة معينة الخط ذاهبة الى الكمال او منحدرة الى النقص حسب الغايات المحتومة التي يسير بها الفكر في طريق القدر الذي يقودهُ

فهذه علوم البلاغة التي احدثت فنًّا طريفاً في الادب العربي وانشأت الذوق الادبي نشأتهُ الرابعة في تاريخ هذه اللغة بعد الذوق الجاهلي والمحدّث والمولّد هي بعينها التي

أضعفت الادب وافسدت الذوق واصارته الى ما رأينا في شعر المتأخرين كانما انقلبت عليهم علوماً من الجهل حتى صار النمط العالي من الشعر كانهُ لا قيمة له اذ لا رغبة فيه ولا تحفل به لمباينته لما ألفوا وخلوه من النكتة والصناعة وحتى كان في اهل الادب ومدرسيه من لا يعرف ديوان المتنبي

ولا يصف لك معنى الشعر في رأي ادباء ذلك العهد كقول الشيخ ناصيف اليازجي المتوفى سنة ١٨٧١

ملكتُ من القريض وقلت يكفي لامر شاب قوته بضعف
أحاول نكتة في كل بيت وذلك قد تقصر عنهُ كفي
أجلّ الشعر ما في البيت منهُ غرابةُ نكتة او نوع لطف

يريد النكتة البلاغية وانواع البديع وذلك ما قصرت عنهُ كفهُ وكف غيره لانهُ شيء مفروغ منهُ حتى لا يأتي المتأخر بمثال فيه الاّ وجدتهُ بعينه لمن تقدموه على صور مختلفة ينظر بعضها الى بعض وما يأتي اختلافها الا من ناحية الحذق في إخفاء السرقة بالزيادة والنقص والإلمام والملاحظة والتعريض والتصريح وغيرها مما يعرفهُ أئمة الصناعة ولا يتسبب اليه بأقوى اسبابه الاّ من رزق القوة على التوليد والاختراع

اذا عرفت ذلك السر في سقوط الشعر واضطرابه وسفسفته لم تر غريبا ما هو غريب في نفسه من ان بدء النهضة الشعرية الحديثة لم يكن العلم الذي يصحح الرأي ولا الاطلاع الذي يؤتي الفكر ولا الحضارة التي تهذب الشعور ولا نظام الحكم الذي يحدث الاخلاق ، وانما كان ضربا من الجهل وقف حدّا منيعا بين زمن فنون البلاغة وبين زماننا وكان كالساحل لذلك الموج المتدفع الذي يضطرب على مدّ ثمانمائة سنة من القرن السادس الى الرابع عشر للهجرة . ولله اسرار عجيبة في تقليب الامور وخلق الاحداث ودفع الحياة الفكرية من نمط الى نمط واخراج العقل المبتدع من هيأة الى هيأة وجعل بعض النفوس كالينابيع للتيار الانساني في عصر واحد او عصور متعاقبة واقامة بعض الاشخاص حدوداً على الازمنة والتواريخ ، فكان الذي احدث الانقلاب الرابع في تاريخ الشعر العربي وانشأ الذوق نشأته الخامسة هو الشاعر الفحل محمود باشا البارودي الذي لم يكن يعرف شيئاً البتة من علوم العربية او فنون البلاغة وانما سمت به الهمة لانهُ حادثة مرسلة لتقلب والتغيير فأبعده الله من تلك العلوم واخرجهُ لنا من دواوين العرب كما نشأ مثل ابن المقفع والجاحظ من فصحاء الاعراب ويسّر لهُ من اسباب ذلك ما لم يتفق لاحد غيرهُ

مما لا محل لبسطهِ هنا . ولا تكاد تجد شعر أديب متأخر يستقيم لهُ ان يذكر في شعر كل عصر من لدن زمننا الى صدر الاسلام ثم لا تحط مرتبتهُ غير كلام البارودي هذا . وهو وحده الذي يقابل القاضي الفاضل في ادوار التاريخ الادبي على بعد ما بينهما لان شعرهُ هو الذي نسخ آية الصناعة ودار في ألسنة الرواة وكان المثل المحتذى في القوة والجزالة ودقة التصوير وتصحيح اللغة . ولم يشأ الله ان يسبقهُ الى ذلك احد لان النهضة الاجتماعية في هذا الشرق العربي كانت في علم الله مرهونة باوقاتها واسبابها ولولا ذلك لسبقهُ شاعر القرن الحادي عشر الامير منجك المتوفى سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م) فقد اتفقت لهذا الامير نشأة كنشأة البارودي فكان كثير الحفظ من دواوين العصور الاولى وكان يقلد أبا فراس الحمداني ويحتذي على مثالهِ ولكن عصرهُ كانت في العصور الهالكة تخرج الشاعر ضعيفاً كما يخرج كل شيء في غير وقتهِ ولغير عامهِ وبغير وسائلهِ الطبيعية

ونشأت العصابة البارودية وفيها اسماعيل صبري وشوقي وحافظ ومطران وغيرهم وادركوا ما لم يدركهُ البارودي وجاءوا بما لم يجئ بهِ . واتصل الشعر بعضهُ ببعض وسارت بهِ الصحف وتناقلتهُ الافواه وأنسي ذكر البلاغة وفنونها بالنشأة المدرسية الحديثة التي جعلت من ترك البلاغة بلاغة لانها صادفت اوائل الانقلاب ليس غير . وبذلك بطل في مصر عصر ابي النصر والليثي والساعاتي والنديم وطبقتهم وفي الشام عصر اليازجي والكستي والانسي والاحدب واضرابهم وفي العراق عهد الفاروقي والموصلي والبزّاز والتميمي وسواهم واستقل الشعر عربياً عصرياً وخرج كما يخرج الفكر المخترع ماضياً في سبيل غير محدودة

***

لا ريب في ان الطرق التي تتبع في تربية الامة وتكوين روحها العالية لا بد ان يكون لها أثر بيّن في شعر شعرائها فانما الشعر فكر ينبض وعاطفة تختلج وما أرى الشاعر الحق من امتهِ الا كالزهرة الصغيرة من شجرتها ان لم تكن خلاصة ما فيها من القوة فهي خلاصة ما في الشجرة من معنى الجمال ولونهِ وطيبهِ ولا تعدم مع هذه الصفة ان تكون وحدها الكوكب الساطع في هذا الافق الاخضر كلهِ . ولقد اطّردت النهضة منذ خمسين سنة او حولها في الادب والعلم وفي الفكر والفن والصناعة واستوى لنا من ذلك ما لم يتفق لهذه الامة في عصر من عصورها حتى بلغنا من ذلك ان صرنا كأنما فتحنا أرضاً من اوربا . وتغلبنا عليها او أنشأنا اوربا عربية وما نزال نعمرها وننقل اليها العلوم والفنون والآداب ونستخرج لها الامثلة والاساليب . غير ان الشعر العربي مع هذا كلهِ لم يوفَّ قسطهُ ولم

يبلغ مبلغهُ في مجاراة هذه النهضة قوةَ ابتكار وسلامةَ اختراع وحسن تنوع لسببين : الاول انهُ لا يزال كما كان منذ فسدت اللغة العربية شعر فئة لا شعر امة فهو يوضع للخاصة لا للشعب ويدور مع الاغراض والحاجات لا مع الطبائع والاذواق ، وذلك لو تأملت هو من بعض الاسرار في سمو هذا الشعر وقوة إحكامهِ وابداع تنسيقهِ وجمال توشيحهِ منذ الدولة العباسية الى القرن الخامس ثم انحطاطهِ بعد ذلك وتدليهِ شيئاً فشيئاً حتى بلغ الدرك الاسفل في العصور المتأخرة اذ كانت الفئة التي يوضع لها وبحسب اهوائها واغراضها وتتقبلهُ وتثيب عليهِ وتحسن وزنهُ ونقدهُ هي في الناحيتين كما ترى من طرفي المنظار الذي يقرب البعيد فهي بالنظر في اولهِ واضحة جلية مترامية الى الجهات وبالنظر في آخرهِ ضئيلة ممسوخة لا تكاد تعرف . وما اقضى العجب من غفلة بعض الكتّاب في هذا الزمن إذ يناهضون العربية ويزرون على الفصاحة ويعملون على انكماش سوادها وتقليل اهلها وما يدرون انهم بذلك يسقطون الشعر قبل الكتابة على خطأ او عمد وقلما تجد واحداً من هؤلاء يحسن معالجة الشعر فان اصبت لهُ شعراً وجدتهُ لا غناء فيهِ او في اكثرهِ وأين وضعت يدك منهُ لم تخطئ ان تقع على مثل مما يمثّل بهِ لعيب من عيوب البلاغة

وهذه النهضة التي نحن في صدد الكلام عنها أوسع مدى واوفر اسباباً من تلك التي كانت في الدولة العباسية بما دخلها من ادب كل امة وما اتصل بها من اساليب التفكير ولكن أين رجال الفصاحة المتمكنون منها المتعصبون لها العاملون على بثها في الالسنة مع ان عصرهم أوسع من عصر الرواة بكثرة ما اخرجت المطابع من امهات الكتب والدواوين حتى اغنت كل مطبعة ادبية رواية من ائمة الرواة

والسبب الثاني الذي من اجلهِ لا يزال الشعر متخلفاً عن منزلتهِ الراجية لهُ — سقوط فن النقد الادبي في هذه النهضة فان من اقوى الاسباب التي سمت بالشعر فيما بعد القرن الثاني وجعلت اهلهُ يبالغون في تجويده وتهذيبهِ كثرة النقاد والحفاظ وتتبعهم على الشعراء واعتبار اقوالهم وتدوين الكتب في نقدهم كالذي كان في دروس العلماء وحلقات الرواية ومجالس الادب وكالذي صنفهُ مهلهل بن يموت في نقد ابي نواس واحمد بن طاهر وابن عمار في ابي تمام وبشر بن تميم في البحتري والآمدي في الموازنة والحاتمي في رسالتهِ والجرجاني في الوساطة وما لا يحصى من مثل هذه الكتب والرسائل . وانت من النقد في هذه النهضة بين اثنين : صديق هو الصديق او عدو هو العدو . . . . فان ابتغيت لها ثالثاً فكاتب لا تتعادل وسائل النقد فيهِ فلا خير في كلامهِ . اما الناقد الذي اعترض على العربية

وآدابها وكان شاعراً كاتباً قوي العارضة دقيق الحس ثاقب الذهن مستوي الرأي بصيرا بمذاهب الادب متمكناً من فلسفة النقد مبرّزا في ذلك كله — فهذا الخيال يذكرني كلمة قلتها يوماً للبارودي اذ قلت له : ان الشاعر لا يكون لسان زمنه حتى يوجد معهُ الناقد الذي هو عقل زمنهِ . فقال ومن ناقد الشعر في رأيك ؟ قلت الكاتب وهو شاعر والاديب وهو فيلسوف والمصلح وهو مؤرّخ فكأنما هوّلت عليه حتى قال رحمهُ الله « فين دا كلهُ » قلت فلعلهُ لا ينشئه لنا هذا العقلَ الملتهب الاَّ العصر الذي يوجد لنا اسطولاً كاسطول انجلترا

***

وعلى ما نزل بالشعر العصري من هذين السببين فقد استقلت طريقتهُ وظهر فيهِ اثر التحول العلمي والانقلاب الفكري وعدل بهِ اهله الى صور الحياة بعد ان كان في اكثرهِ صوراً من اللغة واضافوا بهِ مادة حسنة الى مجموعة الافكار العربية ونوعوا منهُ انواعاً بعد ان كان كالشيء الواحد واتسعت فيهِ دائرة الخيال بما نقلوا اليه من المعاني المترجمة من لغات مختلفة وهو من هذه الناحية اوسع من شعر كل عصر في تاريخ هذه اللغة اذ كان الاولون انما يأخذون من اليونانية والفارسية ثم اخذ المتأخرون قليلاً من التركية . اما في العهد الاخير فيكاد العقل الانساني كلهُ يكون مادة الشاعر العربي لولا ضعف اكثر المُحدَثين من الناشئ الجديد في البيان واساليبهِ وبعدهم من ذوق اللغة واعتياص مراميها عليهم حتى حسبوا ان الشعر معنى وفكر وان كل كلام ادى المعنى فهو كلام ولا عليهم من اللغة وصناعتها والبيان وحقيقتهُ وحتى صرنا والله من بعض التفاهة والركاكة والاختلال في شر من توعّر نظم الجاهلية وجفاء الفاظهِ وكزازة معانيهِ ، وهل ثمَّ فرق بين ان تنفر النفس من الشعر لانهُ وعر الالفاظ عسر الاستخراج شديد التعسف وبين ان تمجهُ لانهُ ساقط اللفظ متسوّل المعنى مضطرب السياق ؟ ثم تراهم يجرون بالشعر كلهُ على اختلاف اغراضهِ نمطاً واحداً من تسهيل اللفظ ونزوله حتى كأن هذه اللغة لا تنوُّع في الفاظها واجراس الفاظها مع ان هذا التنوع من احسن محاسنها واخص خصائصها دون غيرها من اللغات كما أن كل تنوع هو من ابدع اسباب الجمال والقوة في كل فن . ولا يدري اصحابنا ان كل ذلك من عملهم عبث في عبث اذاهم لم يعطوا الشعر حقهُ من صناعة اللغة ، وهذا شاعر الفرس الشهير مصلح الدين السعدي الشيرازي امام من أئمة البلاغة في قومهِ لا يدفع مكانهُ وشعرهُ مثل من اسمى الامثلة في جمال المنطق

الروح وليس في الناس الآمن يسلم له هذا الخلو من النبوغ ، وهو مع ذلك حين نظم الشعر العربي لم تنفعه نافعة من حكمة او خيال او فكر وذهب في التعسف كل مذهب وحمل على كلامه من العيوب ما لم يسلم معه الا صحة الوزن كقوله في وصف نكبة بغداد وخرابها

فقد ثكلت ام القرى ونكبة مدامع في الميزاب تسكب في الحجر
على جذر المستنصرية ندبة على العلماء الراسخين ذوي الحجر
نوائب دهر ليتني مت قبلها ولم أرَ عدوان السفيه على الخير
محابر تبكي بعدهم بسوادها وبعض قلوب الناس تألف بالقدر
لحى الله من تسدي اليه بنعمة وعند هجوم اليأس اهلك من حبر

فانظر اي شعر هذا في الركاكة والهذيان والسخف وفي خمود الفكر وضعف الروح وذهاب الرونق وتأمل كيف هوى به السعدي من مكانته التي بوأه إياها ادبه العالي وكيف سقط الى حيث ترى مع انه في محراب الفكر إمام وراءه صفوف من عصور البلاغة

ومن هنا نشأ في ايامنا ما يسمونه « الشعر المنثور » وهي تسمية تدل على جهل واضعها ومن يرضاها لنفسه فليس يضيق النثر بالمعاني الشعرية ولا هو قد خلا منها في تاريخ الادب ولكن سر هذه التسمية ان الشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة يظهر فيها الاختلال لاوهى علة ولايسر سبب ولا يرتقي الى سبك المعاني فيها الا من امده الله باصح طبع واسلم ذوق وافصح بيان ، فمن اجل ذلك لا يحتمل شيئاً من تخنث اللفظ او فساد العبارة او ضعف التأليف ولا تستوي فيه اسمى المعاني مع شيء من هذه العلل واشباهها وتراه يلقي بمثل (السعدي) من الفلك الاعلى الى الحضيض لا يقيم له وزناً ولا يرى له عللاً ولا يقبل فيه عذراً ولا رخصة . غير ان النثر يحتمل كل اسلوب وما من صورة فيه الا ودونها صورة الى ان تنتهي الى العامي الساقط والسوقي البارد ، ومن شأنه أن ينبسط وينقبض على ما شئت منه ، وما يتفق فيه من الحسن الشعري فانما هو كالذي يتفق في صوت المطرب حين يتكلم لا حين يغني . فمن قال « الشعر المنثور » فاعلم ان معناه عجز الكاتب عن الشعر من ناحية وادعاؤه من ناحية اخرى

***

والذي اراه جديداً في الشعر العربي مما ابدعته هذه النهضة اشياء

(اولاً) هذا النوع القصصي الذي توضع فيه القصائد الطوال فان الآداب العربية خالية منه وكان العرب ومن بعدهم اذا ذكروا القصة ألموا بها اقتضاباً وجاؤا بها في جملة

السياق على انها مثل مضروب او حكمة مرسلة او برهان قائم او احتجاج او تعليل وما جرى هذا المجرى مما لا ترد فيه القصة لذاتها ولا لتفصيل حوادثها وهو كثير في شعر الجاهليين والاسلاميين والجيّد منهُ قليل حتى في شعر الفحول فان طبيعة الشعر العربي تأباه٬ والذين جاؤوا به من المصريين لا يجيدون منهُ الاّ قطعاً تعرض في القصيدة وابياتاً تنفق في بعض معانيها واغراضها مما يجري على أصلهِ في سائر الشعر طال او قصر . والسبب في ذلك ان القصة انما يتم تمامها بالتبسط في سردها وسياقة حوادثها وتسمية اشخاصها وذكر اوصافهم وحكاية افعالهم وما يداخل ذلك او يتصل بهِ ، وانما بني الشعر العربي في اوزانهِ وقوافيهِ على التأثير لا على السرد وعلى الشعور لا على الحكاية ولا يريدون منهُ حديث اللسان ولكن حديث النفس فهو في الحقيقة عندهم صناعة روحية يصنعون بها مقادير من الطرب والاهتزاز والفرح والحزن والغضب والحمية والفخر والاستطالة ونحوها من المعاني التي هي بسبب من اسباب الانفعال والنزعة فلا جرم كان ميلهم الى ذلك هو التحديد لا الاطلاق وضبط المقادير لا الاسراف منها اذ كان من شأن هذه الامور في طبيعة النفس ان ما زاد منها عن مقدارهِ تحوّل وانقلب في تأثيرهِ ، وذلك هو السبب ايضاً في ان هذا الشعر ما لم يكن قائماً على اختيار اللفظ وصنعة العبارة وتصفيتها وتهذيبها واختيار الوزن للمعنى وإدارة الفكر على ما يلفت النفس من ضروب المجاز والاستعارة ونحوها — سقط وركّ بمقدار ما ينقصهُ من ذلك . وليس الشأن في اطالة القصيد فمن الشعراء من نظم رويّاً واحداً في اربعة آلاف بيت ومنهم من نظم تفسير القرآن كله ولكن عيب مثل هذا الشعر في العربية انهُ شعر .... وما أخمل ابن الرومي على جلالة علمهِ الاطول قصائدهِ وسياقة الكلام فيها مع ذلك على ما يشبهُ اسلوب الحكاية وخروجها مخرج المقالة يتحدث بها فلم تجيء لهُ الا مقطعات وابيات ومات سائر شعرهِ وهو حي وميت على السواء حتى قال فيهِ صاحب الوساطة : ونحن نستقري القصيدة من شعرهِ وهي تناهز المائة او تربي او تضعف فلا نعثر فيها الاّ بالبيت الذي يروق او البيتين ثم قد تنسلخ قصائد منهُ وهي واقفة تحت ظلها جارية تحت رسنها لا يحصل منها السامع الاّ على عدد القوافي ..... » والعجيب أن بعض الكتاب في عصرنا ممن لا تحقيق لهم في مثل هذه المسائل يعدون احسن محاسن ابن الرومي ما هو اقبح عيوبهِ ، وقاتل الله صناعة الكتابة فكما انها لملء الفراغ هي كذلك لإفراغ الملآن ...

(ثانياً) صياغة بعض الشعر على اصل من اصول التفكير في الانجليزية او الفرنسية او غيرها من لغات الامم فيخرج الشعر عربياً واسلوبهُ في تأدية المعنى اجنبي . واكثر ما يأتي هذا

النوع من امريكا وانا اعجب بكثير منهُ لما فيهِ من الغرابة والحسن. وما زالت اجناس الامم يضيق بعضها باشياء و يتسع بعضها باشياء فلسنا مقيدين بالفكر العربي ولا بطريقته وعلينا ان نضيف الى محاسن لغتنا محاسن اللغات الاخرى ولكن من غير ان نفسدها او نحيف عليها او نرميها بيع الوكس. ومتى كان هذا النوع من الشعر رصيناً محكماً جيد السبك رشيق المعرض كان في النهاية من الرقة والابداع . ولم يأت التجديد في هذه اللغة الأ من هذه الناحية كالذي تراهُ فيما اخذ عبد الحميد وابن المقفع من نمط الاداء في اللغة الفارسية

(ثالثاً) الانصراف عن افساد الشعر بصناعة المديح والرثاء وذلك بتأثير الحرية الشخصية في هذا العصر . والمدح اذا لم يكن باباً من التاريخ الصحيح لم يدل على سمو نفس الممدوح بل على سقوط نفس المادح وتراهُ مدحاً حين يتلى على سامعهِ ولكنهُ ذم حين يُعزَى الى قائلهِ ؛ وما ابتليت لغة من لغات الدنيا بالمديح والرثاء والهجاء ما ابتليت هذه العربية ولذلك اسباب لا محل لتفصيلها

(رابعاً) الاكثار من الوصف والابداع في بعض مناحيهِ والتفنن في بعض اغراضهِ الحديثة وذلك من اسمى ضروب الشعر لا تتفق الاجادة فيهِ والاكثار منهُ الأ اذا كان الشعر حياً وكانت نزعة العصر اليهِ قوية وكان النظر فيهِ صحيحاً . ولما وصف الشيخ احمد الكردي من شعراء القرن الثاني عشر السفينة واستهل بهذا الوصف مدح الوزير راغب باشا عدوا ذلك حادثة من حوادث الادب في عصرهِ الخامل

(خامساً) إهمال الصناعات البديعية التي كان يبنى عليها الشعر فينظم البيت ليكون جناساً او طباقاً او استخداماً او تورية الخ او ضرباً آخر من صناعة العدد والحساب كالتاريخ الشعري بانواعهِ او صناعة الحرف كالمقلوب والمهمل وغيرهما او صناعة الفكر كاللغز والمعمى أو صناعة الوضع كالتشجير والتطريز الى ما يلحق بهذا الباب الذي ذهب اهلهُ فلا يتيسر لاحد من بعدهم ان يجاريهم فيهِ وكانت لهم في كل ذلك عجائب استقصيناها بالتدوين في موضعها من (تاريخ آداب العرب) . بيد أن اهمال صناعة البديع شيء واهمال فن البديع نفسه شيء آخر ومن هنا جاء ما تراهُ في بعض الشعر الحديث« والشعر المنثور »من الاغراق السخيف الذي لا يقوم على اصل ومن التعدي في ضروب الاستعارة والبعد في المجاز والاحالة في الوضع ونحوها مما يرجع الى الجهل بطبيعة البلاغة ومما لا نعدّهُ الأ ضرباً من الفساد يلحق بما كان في العصور الماضية وان كان على الضد منهُ

(سادساً) النظم في الشؤون الوطنية والحوادث الاجتماعية مما يجعل الشعر محيطاً

بروح العصر وفكره وخياله وهو باب لا ينهض به الا افراد قلائل ولا يزال ضعيفاً لم يحكم . وقد قالوا ان للقاضي الفاضل التي عشر الف بيت في مدح الوطن والحنين اليه ولكن لا احسب ان فيها مائة من نحو ما ينظم في هذا العصر مما ادى بالشعر الى ان يدخل في باب السياسة ويعدّ من وسائلها وفي طرق التربية ويعد من اسبابها

(سابعاً) استخراج بعض اوزان جديدة من الفارسية والتركية وهو قليل جاء به شوقي في قصيدتين ولم يتابعهُ احد لافراط ذلك الوزن في الخفة حتى رجع الى الثقل . . . . ثم نظم بعض الشعر من اوزان مختلفة تربية التناسق على قاعدة الموشح ولكنهُ شعر لا توشيح كما ينظم بعض شعراء امريكا وسوريا ولم يحدث مثل ذلك في العربية فان القصيدة كانت تنظم من بحر واحد وقد يخرج منهُ وزن آخر . ولا نعرف في تاريخ الادب قصيدة تألف من وزنين الا التي قالوا ان حسين بن عبد الصمد المتوفى سنة ٩٨٤ هـ (١٥٧٦) م قد اخترعهُ ونظم فيهِ ابياتهُ التي مطلعها

فاح عرف الصبا وصاح الديك وانثنى البان يشتكي التحريك
قم بنا نجتلي مشعشعةً تاه من وصفه بها النسيك

وعارضها ولدهُ الامام الشهير بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول بابيات قالوا انها سارت في عصره مسير المثل ونسج عليها شعراء ذلك العصر كالنابلسي وغيره ومطلعها

يانديمي بمهجتي افديك قم وهات الكؤس من هاتيك
خمرة ان ضلت ساحتها فسنا نور كأسها يهديك

على ان هذا الوزن بشطريهِ مستخرج من الخفيف فليس باختراع كما زعموا وانما هو ابتداع في التأليف الشعري . وقد اجتزأنا بما مرت الاشارة اليهِ فانهُ كل ما تغير بهِ الرسم في هذه الصناعة وتركنا الامثلة تفادياً من الاطالة

***

وبعد فلا ريب ان النفس البشرية في حاجة ابداً مع دينها الروحي الى دين انساني يقوم فيها على الشعور والرغبة والتأثير فيفسر لها حقائق الحياة ويكون وسيلة من وسائل تغييرها ليجعلها الطف مما هي في الطف وارق مما تكون في الرقة وابدع مما تتفق في الابداع . ذلك الذي يصل بظهوره وإبهامهِ بين الواضح والغامض والخالد والفاني ، ذلك الذي لا يجمل الجمال الا بهِ ولا تسكن النفس الا اليهِ ، ذلك هو الشعر

مصطفى صادق الرافعي